جمال الدين الأصفهاني الوزير ودوره في دولة أتابكية الموصل

د/ محمد سعيد إسماعيل

مدرس التاريخ الإسلامي كلية الآداب ببورسعيد

يعد الوزير جمال الدين الأصفهاني من أبرز الشخصيات في تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل، وقد ذاع صيته في كثير من المصادر نظراً لأخلاقه الحميدة وخاصة كرمه العجيب وقد أدى ذلك إلى قربه من زنكي وجعله محبوباً ومشهوراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي ومنحه ذلك لقب الجواد لكثرة جوده، كما دفعت أبناء زنكي فيما بعد للاعتماد عليه في إدارة إمارتهم

ودراسة شخصية جمال الدين الأصفهاني وما قدمه من أدوار هامة ومتنوعة في دولة أتابكية الموصل لجديرة بالإهتمام وخاصة إذا اتخذت هذه الدراسة الشكل التطبيقي من خلال واقع ملموس ظهر بشكل واضح في خلال عهود الأتابك عماد الدين زنكي وأبناءه من بعده سيف الدين غازي، نور الدين محمود، وقطب الدين ممدود، وقد لعب دوراً كبيراً في الحفاظ على البلاد وإبقاءها في أيدي أولاد صاحبة وولي نعمته عماد الدين زنكي.

- **أسمه ونسبه وصفاته: -**

هو جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن منصور الأصفهاني، كان والده من أصفهان يدعي الكامل علي وهو صاحب الوزير شمس بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهاداً [١] في عهد السلطان ملكشاه بن الب ارسلان وابنه الكامل اديب معروف إزدات شهرته كثيراً حتى تنافس الملوك والوزراء في الإستعانة به والأخذ برأيه في الأحداث، وكان الكامل قد زوج أحدى بناته ببعض الأولاد أخوال عماد الدين زنكي يعني عم العماد الكاتب، مما دعي إلى إهتمام عماد الدين زنكي بإبنه جمال الدين أبي جعفر محمد وأخرجه من العمل بالآدب، وبدأ في إستخدامه في العمل بالسياسة وترقيته في الرتب [٢].

كان أبو جعفر الأصفهاني الملقب بالجمال عظيم القدر والخطر كريم الورد والصدر لم يوجد له نظير في سعة نفسه ومروءته عظيم الفتوة، فضلاً عن كثرة صدقاته وبرة وسخاءه وكثرة بذله للمال، رحيماً بالخلق متعطفاً عليهم عادلاً فيهم [٣]

- دور جمال الدين الأصفهاني في عهد الأتابك عماد الدين زنكي:-

قام الأتابك عماد الدين زنكي بصرف جمال الدين الأصفهاني عن العمل بالآدب كوالده وبدأ في إدخاله العمل السياسي تدريجياً، ففي البداية عينه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، واعتاد زنكي على مناداته بالأبلج مما دعي

---

(١) فهاداً: الفهد معروف سبع يصاد به، والجمع (أفهد،فهود) والأنثى(فهده) – والفهاد صاحبها، ويقال للذي يعلم الفهد الصيد فهاد، بن منظور : لسان العرب،ج٧ص ١٨١

(٢) شهاب الدين المقدسي : كتاب الروضتين، ج١ ص ٤٢١

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ص ١٢٧، الكامل في التاريخ ج٩ ص ٨٨، أبي شامة : الروضتين، ج١ ص٤٢٦ ، ٤٢٧

الأتراك إلى وصفه بالأبلج، ونجح في هذا العمل وحسنت سيرته، وقد شارك مع عماد الدين زنكي في خروجة مع الكثير من حكام الموصل وأمراء السلطان السلجوقي،و تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام، واظهرت تلك الحروب شجاعته وكفاءته مما دعاه إلى الإعتماد عليه في حكم هذه البلاد فيما بعد [١]

ونظير ما حققه عماد الدين زنكي من نجاحات متعددة في حروبه السابقة إرتفعت مكانته لدى السلطان محمود السلجوقي وأراد مكافئته ورفع مكانته فزوجه بإمراة الأمير كندغدي[٢]، واصبح من مقدمي الأمراء الكبار، وبلغ من علو شأنه أن حضر السلطان حفل زواجه وجعل عماد الدين على يمين تخته لا يتقدمة أحد وكان هذا مكانه أبيه من قبل، ولم ينسى عماد الدين زنكي أن يكرم هو الآخر جمال الدين الأصفهاني فعينه وزيراً لخاصبك بن كندغدي الذي كان يعد من أمراء الدولة وأبناء الملكة، ويذكر أن هذا الأخير كان لا يفارق أمة ويسير معها وهكذا أصبح جمال الدين يسير في صحبة هؤلاء جميعاً [٣]

ومما لاشك فيه أن رضاء عماد الدين زنكي وثقته في جمال الدين الأصفهاني كانت وراء تعينه في هذا المنصب الخطير فضلاً عما أظهره من الكفاءة والدقه في نظر الأمور صغيرها وكبيرها، كما كان يلقي قبولاً من الجميع لبشاشة وجهه ووجاهته وفكاهته، ولكل هذه الصفات وغيرها جعلت عماد الدين زنكي يجعله بعد ذلك من خواصة وأكبر ندماءه وأصبح لايفارقه صباحاً ومساءاً ويتشاور معه في كافة الأمور [٤]

وحاول عماد الدين زنكي تجربة جمال الدين الأصفهاني في مجال جديد وهو العمل الإداري نظراً لما حققه من نجاحات وأمانة في أعماله السابقة، فبعد نجاحه في الإستيلاء على نصيبين[٥]، وتنظيم إداراتها فولاه عليها في سنة ٥٢١هـ/١١٣٦ م فلم يخيب ظنه ونجح في حكمها باقتدار ثم أضاف إليه الرحبه [٦]

فأبان عن كفاية وعفة، وفي الأيام الأخيرة من حياته إسند إليه مهمة الإشراف على ديوانه وزود راتبة ومكنه من منصبة، ومن الجدير بالذكر أن جمال الدين لم يحاول أن يستغل هذا المنصب بجمع المال لحسابة الخاص بل كان يأخذ فقط ما يكفيه لمعيشته ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة عماد الدين، مما دعي الأخير إلى زيادة الإعتماد عليه وثقته به وحكمه تحكيماً كبيراً ومكنه من أصحاب ديوانه أي تمتع بسلطات واسعة وبخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية، وهكذا شغل جمال الدين منصباً خطيراً وأطلقت عليه معظم المصادر لقب وزير [٧]

- دور جمال الدين الأصفهاني في الحفاظ على البلاد بعد مقتل عماد الدين زنكي.

وفي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م حاصر عماد الدين زنكي قلعة جعبر وهي لعلي بن سالم العقيلي فأغتاله مماليكه بتدبير من الصليبيين وامراء السوء قتله مملوكه يرنفش في ٥ ربيع الأول وفر إلى القلعة، ولم قتل عماد الدين كان أبنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً بشهروز، بينما كان نور الدين محمود ابنه الثاني معه عند قلعة جعبر وبعد أن

(١) ابى شامة: المصدر السابق،ج١،ص٤٢١،سعيد الديوجي:تاريخ الوصل،ص٢٦١

(٢) كندغدي: كان هذا من أكابر أمراء السلطان وقد جعله اتابكاً لطغرل بك ومدبراً لدولته فحسن له العصيان علي السلطان وتوفي وترك أموالاً وسلاحاً وثروة كبيرة، سعيد الديوجي: المرج السابق ص ٢٦٢

(٣) أبي شامه : المصدر السابق، ج١ ص ٤٢١ سعيد الديوجي : المرجع السابق ص ٢٦٢

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص١١٨

(٥) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل والشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٥ ص ٢٨٩

(٦) الرحبه: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا ارادوا مكه، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص ٣٣

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ص١١٨، أبي شامة : المصدر السابق، ج١ ص ٤٢١ علي محمد : عصر الدولة الزنكية، ص٧٠

شهد مصرع أبيه أخذ خاتمة من يده وسار ببعض العسكر إلى حلب فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر، كما كان زنكي أيضاً عند قلعة جعبر الملك الب ارسلان وما أن علما بمصرعه حتى بادر إلى جمع العساكر وأعد العدة للتوجه إلى الموصل للإستيلاء عليها، وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني كان في جملة العسكر المحاصر لقلعة جعبر فما أن علم بذلك حتى لعب دوراً كبيراً في الحفاظ على البلاد وإبقاءها في أيدي أولاد صاحبة وولي نعمته عماد الدين زنكي[١]

فما أن شعر الوزير جمال الدين الأصفهاني بقصد الملك الب رسلان حتى بادر بالإتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسياني حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهم من خلاف، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له (إن المصلحة أن تترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقاً يبقى به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا فإن الملك قد طمع في البلاد، وأجتمعت عليه العساكر، ولأن لم نتلافى هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته لتسعن الخرق ولا يمكن رقعة) فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبة[٢]

أتفق الرجلان على العمل معاً لمواجهة ألب أرسلان والوقوف أمام أطماعه في الإستيلاء على البلاد فسارا إلى ألب ارسلان وخدعاه وضمنا له فتح البلاد وأطمعاه فيها، وهونا عليه أمرها وقالا له: (إن أتابك عماد الدين كان نائباً عنك في البلاد، وإنا بإسمك كنا نطيعه) فقبل قولهما وظنه حقاً، وقربهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه[٣]

وهكذا نجح كل من جمال الدين وصلاح الدين في كسب ثقة ألب أرسلان فأوعذ إليهما مهمة تنفيذ أهدافة لعلمه بمكانتهما في الدولة الأتابكية، ثم إنهما أرسلا إلى زين الدين علي بن بكتكين نائب زنك في الموص وأخبراه بمقتل عماد الدين وأشار عليه بإستدعاء ولده سيف الدين غازي من شهرزور وتمكينه في الموصل فأجابهما زين الدين إلى ذلك وأرسل من يحضر غازي إلى الموصل[٤]

وأشار أسد الدين شيركوه عل نور الدين محمود أن يسير إلى حلب ويدبر البلاد خشية من هجوم الصليبين، كما صار صلاح الدين الياغسياني إلى الشام ليلتحق بخدمة نور الدين محمود ويدبر معه أمور دولته، أما جمال الدين فكان يحلف الأمراء لسيف الدين غازي ويأمرهم بالمسير مع العساكر إلى الموصل، فأخذوا يتسللون إليها ولم يبقى مع الملك ألب ارسلان إلا عدد قليل من الجيش، وأنفرد جمال الدين بالملك ألب ارسلان بعد ذهاب صلاح الدين إلى الشام وأقنعه بالتوجه إلى الرقة وحسن له الإنشغال بشرب الخمر وأرسل إليه عدد من الجواري وشيئاً من

(١) ابن خلدون: تاريخ بن خلدون، ج٥ ص ٢٣٧، رشيد الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل، صـ ٥٩، ٦٠، سعيد الديوجي: تاريخ الموصل، صـ ٢٧٨، ٢٨٤

(٢) ابن الأثير: الباهر، صـ ٨٥،٨٤ ، بن خلدون: المصدر السابق، ج٥ صـ ٢٣٧، رشيد الجميلي: المرجع السابق، صـ ٦٠

(٣) أبن الأثير: المصدر السابق، صـ ٨٥

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥ صـ ٢٣٧، رشيد الجميلي: المرجع السابق صـ ٦٠

المال يهبه للمغنيات وهون عليه أمر البلاد، ومنعه من إعطاء الأمراء خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه حتى تمكن أمر سيف الدين غازي[١]

سار ألب ارسلان إلى الرقه ومنها إلى ماكسين وهو مشغول بلذاته وامره في ضعف وأدبار فبقى هناك فترة من الزمن ثم رحل إلى سنجار، وهناك علم جمال الدين بدخول غازى الموصل وإستقراره فيها فأرسل إلى دزدار (محافظ) قلعة سنجار يأمره بعدم تسليم البلد إلى ألب ارسلان ويعلمه بولاءه وانه تابع للموصل ومتى أخضعت الموصل سلمت لك سنجار، عمل صاحب سنجار بما أشار عليه جمال الدين وأرسل إلى ألب ارسلان يخبره بولاءه له وانه يريد منه أن يوجه قوته إلى الموصل لإخضاعها[٢]

نجح جمال الدين في إقناع ألب ارسلان بالمسير إلى الموصل فوافقة على ذلك وسار إليها في قلة من عسكره الذين بقوا معه، وعبر إلى الجانب الثاني من دجله وهناك فارقه جمال الدين ودخل الموصل، واجتمع بسيف الدين غازي وأخبره بقلة الجند مع ألب ارسلان، فأرسلوا إليه الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي في جماعة من جند الموصل فقبضوا عليه وأدخلوه الموصل فكان هذا آخر العهد به [٣]

وبعد أن تم الأمر لسيف الدين في الموصل أقر سيف الدين غازي زين الدين علي ماكان عليه من ولاية الموصل وأتخذ جمال الدين الأصفهاني وزيراً له تقديراً للجهود الذي بذلها للمحافظة على البلاد وإحباطه لحركة الملك ألب ارسلان.

وهكذا أصبحت الدولة الذنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها في مدن الشام، أما اخوهما نصره الدين أمير أميران فقد حكم حران تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين لايزال في رعاية سيف الدين غازي بالموصل (٤)

- دور جمال الدين في عهد سيف الدين غازي بن عماد الدين

أ- دور جمال الدين الأصفهاني في السياسة الداخلية

كافأ الأتابك سيف الدين غازي جمال الدين الأصفهاني على جهودة فاتخذه وزيراً له وخوله صلاحيات واسعة وقرر له عشر دخل بلاده، ويذكر أن سيف الدين غازي فضلا جمال الدين علي علي كوجك في منصب الوزارة وتعهد له على الوقوف إلى جانبه ومناصرته، ثم جاء الإتفاق بين سيف الدين وجمال الدين وعلي كوجك على الوقوف إلى جانب بعضهما ومساعدة كلا منهما للآخر، ويبدو أن الدافع إلى ذلك هو منع الصراع بينهما وتأثير ذلك على أحوال البلاد، ورغبة الأتابك سيف الدين غازي إلى هدوء الموصل، وتفرغه إلى الجهاد مع أخيه ضد الصليبيين في بلاد الشام، ثم ظهر بعد ذلك تحكم الوزير جمال الدين الأصفهاني في أمور البلاد فسارت تأتي إليه الوفود أصبحت

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ صـ ١٠٧، ١٠٨، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥ صـ ٢٣٧، سعيد الديوجي: تاريخ الموصل، ص٢٨٤

(٢) ابن الأثير: الباهر، صـ ٨٦، أبي شامه: الروضتين، ج١ ص ١٢١

(٣) ابن الأثير: الباهر، صـ ٨٤، بن واصل: مفرج الكروب، ج١ صـ ١٠٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٤ صـ ٤،٣

(٤) العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١ ص٥٣٤، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ صـ ٦٢١، سعيد الديوجي: تاريخ الموصل – ص ٢٨٥

الموصل في عهده ملجأ لكل ملهوف ومأمنا لكل خائف وغدت قبلة الإقبال وكعبة الآمال وذاع صيته وصنائع جوده(1)

ويبدو أن الوزير جمال الدين الأصفهاني إزدادت شهرته لما كان يبذله للفقراء والمساكين فقصده القصاد من كل بلد سحيق وصاحت بألفاظه ألفاظ الفصاح، وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلهما وسامح الكثير ممن اخطأ فيه وجاءه العظماء ومدحه الشعراء لأنه كان يتذوق الشعر والأدب ويكرم الشعراء، فمنهم أبو الفوارس، سعد بن محمد، بن الصيفي المعروف بحيص بيص فقال في الوزير جمال الدين:

يا للصوارم والرماح الـذبل		نصرا ومن انجدتما لم يخذل
لـو شئتما ومشيئة بمشيئة		جاد الزمان وبالعلا لم يبخل

وقال أيضاً:

شمس من الإحسان عم ضيائها		بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه		ويجود بـالنعمي إذا لم يسأل

وقال أيضاً

إسراء معروف الوزير فكلهم		عاف تراه مطلقاً كمكبل
من سـمرقند إلى تهامة شاهد		فضل الجمال على الحيا المتهلل
السـحب تمطر ما تظل وجوده		يسري ودار مقامه بالموصل(2)

ولما جاء عماد الدين الكاتب إلى بغداد في سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م فقيهاً ثم أتجه إلى الموصل فتقابل مع الوزير جمال الدين في مسجده بظاهر الموصل هناك وصلى معه جمعتين وتكلم مع فقهاء الموصل في مسألتين ثم مدح الوزير جمال الدين في قصيدة أولها:-

أظنهم وقد عزموا إرتحالاً		ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشي		فلما حال عهده الوصل حالا
هم أعتادوا الملال فكيف ملوا		وصـالهم ومـا موا المـلالا
أحادي عيســهم بالله رفقا		فإن السير أورثها الكلالا

وقال أيضاً:

لا وخـــــــدت إليكم بي جمـــالا		ولا واليـــــــت مولانـــــا الجـــــمالا
هـــــو المغنى إذا ما المرء أقـــوى		هـو المنجــــي إذا مـا الخطـــب هـالا
وقائلـــــة ابي الـــــــدنيا كريــم		ســــــواه فقلـــــت لا وابي العــــــلالا

وقال أيضاً:

وحــزت المجد عن كسب وارث		فيـــه صـــــدر الـــورى حــزت الكمالا
خصصــت بكـل منقبة وفضل		تعالــي مـــن حبــاك بــــه تعالـــي(3)

(1) ابن الأثير: الباهر، ص ٨٢، ابي شامة: الروضتين، ج١ ص٤٢٢

(2) ابي شامة: المصدر السابق، ج١ ص ٤٢٢-٤٢٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٢ ص ٣٦٢ - ٣٦٣

(3) ابي شامة: المصدر السابق، ج١ ص ٤٢٣-٤٢٤

وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرفلة، له من قصيدة :-

يهـــوى تجنيـــه والصـــدود كـــما	يـــهوى المعـــالي محمد بن علي
جمـــال ديـــن الاله خـــير فتى	للـــرزق أقلامـــه وللاجـــل
معطـــي القـــرى والقـــرى لقاصده	مـــن غيـــر من والخيل والخول
مثـــــل فتـــوح الفـــاروق نائلة	شرقـــا وغربا في السهل والجبل(١)

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:

كســا الحرمين لبسـة عبد شمس	وهاشـــم غرتـــى نسـل الخليـــل
وللبلـــد الأمـــين أجـد امنـــا	تكنـــف مثلـــه جـــدث الرسول
عشـــيتم يـــاولاة الأمر عمـا	اتيـــح لـــه من الأثـــر الجميل
وطـــار لهـــا وأشفقت فشد الـ	يـــدين علي عـــرى المجد الأثيل
بيـــوت بالحجـــاز مقدسات	رماهـــا الـــدهر بالخطب الجليل

وقال أيضاً:

وكم للوصـــل الحـــدباء ممـــا	تنيـــل يـــداه من ريـــف ونيـــل
بـرود الصفـــح ملتهب الحواشي	مهيـــب الـــبطش فـــراس الدخول

ولأبي المجد بن قسيم الحموي قصيدة يقول فيها:

أغرٌ تبصر منه الناس في رجلٌ	والليث في بشر والبدر في غضن
سما بهمته في المكرمات إلى	علياء تقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضحٌ ليل الفكر راجح نيـ	ـل الكف طاهر زيل السر والعلن
ماض العزيمة ميمون النقيبة رئـ	ـبال الكتببه عين القائل اللسن
إذا تكلم واستجليت غرته	في محفل رحت حالي العين والأذن
كأن في الدست منه حين تنظره	شمس النهار وصوب العارض الهتن(٢)

ب: دوره في السياسة الخارجية

كان من الطبيعي أن تنشا بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة بفعل الروابط الأسرية من جهة وأشتراك آل زنكي عامه لهدف واحد وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل بالنسبة للموصل خط الدفاع الأول وصمام الأمان ضد أي خطر تتعرض له وعلى هذا الأساس قامت العلاقات بين صاحب الموصل وأخيه صاحب حلب بعد وفاة والدهما، ثم بين صاحب حلب والأمراء الذين توالوا على حكم الموصل من أسرة زنكي(٣)

(١) ابي شامة: المصدر السابق، ج١ ص ٤٢٤

(٢) ابي شامة: المصدر السابق، ج١ ص ٤٢٥-٤٢٦

(٣) ابن خلدون: تاريخ بن خلدون، ج٥ ص٢٣٨،٢٣٩، رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل، ص٧٦,٦٨، محمد علي: عصر الدولة الزنكية، ص ٢٠٧٤

نجحا سيف الدين ونور الدين أن يحلا المشاكل التي بينهما وتعاونا على البر والتقوى، وكان من ثمار الإتفاق بين الأخوين مشاركة عساكر الموصل جنباً إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصلبيين وذلك في الدفاع على دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م ونجاحهم معاً في حمل الصليبيين على الرحيل من دمشق بعد أن بثت الرعب والخوف في صفوفهم، لما بلغهم من كثرة تلك القوات والحشود وتتابع الإمداد لها، وقد خرج والوزير جمال الدين الأصفهاني مع عساكر الموصل في هذه الحمله جنباً إلى جنب مع الأتابك سيف الدين غازي [١]

ومن مظاهر التعاون بين الأخوين أيضاً، أشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العريمة وطرد الصليبيين منه، حيث طلب نور الدين من أخيه أن يمدة بفرقة من جيشة لتعينة على فتح الحصن فلم يتردد الأخير وأرسل إليه بفرقة من جيشة بقيادة عز الدين أبي بكر الدبيسي اعانته على تحقيق هدفة حيث تم له في النهاية فتح الحصن [٢]

كما شارك عسكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في أنب وفي فتح أفاميه[٣] سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م، حيث ساهم سيف الدين غازي في هذه الواقعة وأرسل عساكره إلى الشام لتلبية نداء اخية نور الدين، فخرج بهم إلى أنطاكيه ودارت المعركة بين قوات نور الدين والصليبيين في أنب، فإنهزم الصليبيين هزيمة منكره، ولم ينج منه إلا النفر القليل، ثم نزل نور الدين بقواته على باب أنطاكيه وترك فرقة من عسكره عليها، وزحف بمن معه نحو حصن افامية، ولما بلغ أهلها ما حل بصاحب انطاكية ازعنوا إلى التسليم وسلموا البلد في ربيع الأول من سنة ٥٤٤ هـ وبعد ذلك عادت عساكر الموصل إلى قواعدها بعد ان أدت واجبها في الدفاع عن الوطن والمشاركة في الجهد ضد الصليبيين[٤]

- دور جمال الدين في عهد قطب الدين مودود بن عماد الدين:-

أ- دورة في مجال السياسة:-

توفى سيف الدين غازي بالموصل في جمادي الآخرة سنة ٥٤٤هـ فإتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين على كجك أمير الجيوش وعز الدين الدبيسي وكانوا هم المتحكمين في الدولة على تولية قطب الدين ممدود اخاه على الموصل لأنه كان لين الجانب كثير الحلم فأحضروه وحلفوه وحلفوا له الأمراء والأجناد في الموصل وتسلم جميع ماكان لأخية غازي من البلاد التابعة لاتابكية الموصل[٥]

وقد تعرضت العلاقات بين الموصل وحلب في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى إندلاع حرب بين الأخوين لولا أن تدارك قطب الدين الأمر ووضع حداً للنزاع بينهما، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين بإعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين[٦]

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥ ص٢٣٩، رشيد الجميلي: المرجع السابق، ص٧٦، محمد علي: المرجع السابق، ص ٢٠٨

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥ ص٣٩، رشيد الجميلي: المرجع السابق، ص٧٧

(٣) افامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكوره من كور حمص، ياقوت: معجم البلدان، ج١ص ٢٩٨

(٤) ابي شامة: الروضتين، ج١، ص ١٥٠،١٥١، رشيد الجميلي: دولة الاتابكة، ص ٧٨،٧٩

(٥) ابن الأثير: الباهر، ص ٩٢،٩٤

(٦) ابن الأثير: الباهر، ص ٩٥، ابن الواصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١١٨، رشيد الجميلي: دولة الاتابكة، ص ٨١

ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى إستدعاء نور الدين هو كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين نظراً لما كان يتمتعان بهما من مكانة هامة في الموصل، وقد لاقت هذه المبادرة قبولاً طيباً عند نور الدين نظراً لطمعه في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه حتى يتحقق له توحيد الجبهه الإسلامية في ظل قيادة موحدة وبإعتباره الوريث الشرعي لملك أخية سيف الدين(١)، ولما علم الوزير جمال الدين وزين الدين بمكاتبة المقدم أستدعيا المقدم إلى الموصل، فصار متباطئاً ينتظر وصول نور الدين، ولما وصل تليعفر(٢) اعلمه ابنه بأن نور الدين قد وصل سنجار فعاد وسلمه البلد، ولم يكن مع نور الدين جيش يقاومهم به، فكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داؤد صاحب الحصن يستنجدة ووعده بأن يقطعه قلعة الهيثم، وكانت بينهما علاقات حسنة فلم يتردد قرا أرسلان في الحضور إليه بعساكره إلى سنجار(٣)، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، فقد أعتبر قطب الدين وامراءه المخلصون أمثال زين الدين وجمال الدين ذلك إعتداء مباشر عليهم على إعتبار سنجار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكرة نحو سنجار، فنزل بتليغفر وكان يصحبه وزيره جمال الدين وأمير جيشة زين الدين(٤)

أرسل جمال الدين وزين الدين إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على اخذ سنجار وإعتداءه على أملاك أخيه قطب الدين وهداده بقصده إن هو لم يرحل البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت إلى ذلك ورد عليهما بقوله (إنني أنا الأكبر وأني أحق أن ادبر امر اخي منكم وما جئت إلا لما تتابعت إلى كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والآنفه على إخراج الأمر عن أيدينا وأما تهديدكم أياي بالحرب والقتال فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم(٥)

وكانت جماعة من عسكر الموصل أنفصلوا عن جيش قطب الدين وانضموا إلى نور الدين في سنجار فأضعف ذلك أمراء الموصل وخافوا ان ينقسم الجيش ويفلت الزمام من أيديهم فمالوا إلى الصلح، وقد أشار الوزير جمال الدين به تقديراً منه الظروف التي تحيط بالدولة الاتابكية وما يسببه إختلاف الاخوان من تحرك أطماع السلاجقة والصليبين بالبلاد الأمر الذي يؤدي إلى تحول ميزان القوى في المنطقة لصالح الأخيرين، وقد برر جمال الدين ميله للصلح موضحاً اهمية عقدة بقوله (نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا نتبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنجة انه يحكمنا ويتهددهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنجة)(٦)

ومما لاشك فيه أن رأي جمال الدين كان بمثابة تحليلاً دقيقاُ للموقف السياسي والعسكري الذي كان يحيط بدولة الاتابكه في تلك الظروف، فأشار جمال الدين على قطب الدين أن يتنازل عن حمص والرحبة والرقة لنور الدين في مقابل أن يرحل عن سنجار على أعتبار أنها أقرب إلى الموصل وهي أهم معاقل الجزيرة تأثيراً على الموصل، ولم يتردد قطب الدين في قبول هذا العرض، وإتفق الجميع على أن يذهب جمال الدين لمقابلة نور الدين في سنجار وعقد الصلح معه

---

(١) ابن الأثير: الباهر، صـ ٩٥

(٢) تليعفر: قلعة وربض بين سنجار والموصل وسط وادي فيه نهر جار وهي على جبل منفرد، ياقوت: معجم البلدان، ج٢ صـ ٤٠١،٤٠٢

(٣) ابن الأثير: الباهر، صـ ٩٥،٩٦ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ صـ ١١٩

(٤) ابن الأثير: الباهر، صـ ٩٦، أبو شامة: الروضتين، ج١ صـ ١٧٣، ابن واصل: المصدر السابق ج ١ ، صـ١١٩

(٥) ابي شامة: المصدر السابق، ج١، صـ ١٧٣، ابن واصل: المصدر السابق، ج١ صـ ١٢٠

(٦) ابن الأثير: الباهر، صـ ٩٦، أبو شامة: المصدر السابق، ج١ صـ ١٧٣

على هذه القواعد، وسار الوزير إلى سنجار فتم الإتفاق على أن يتخلى نور الدين عن سنجار لأخية قطب الدين ويأخذ حمص والرحبة والرقة ورحل نور الدين إلى الشام بعد أن أخذ كل ما كان بسنجار من الأموال والزخائر(١)

ومما هو جدير بالذكر أن قطب الدين لم يكن سبباً في النزاع وإنما كان غلب على امره الوزير جمال الدين الإصفهاني وزين الدين ثم هما بعد ذلك من اتفقا مع نور الدين على الصلح، كما ان قطب الدين لم يرى مخالفة أخيه نور الدين وخطب له من تلقاء نفسه كما أن نور الدين حرص على معاونة أخيه، ويبدو ان نور الدين فطن إلى ذلك فأراد ان يبعد جمال الدين الإصفهاني عن أخيه ليضعف أمر المتسلطين عليه، وقد كان الوزير أشدهم رأياً وأحسنهم تدبيراً واقواهم سلطة في الدولة، وقال نور الدين للوزير: لابد ان تكون عندي فلي من الحق مقل ما لاخي وانا أحوج إليك منه(٢)

ولكن الوزير جمال الدين فطن أيضاً إلى مايريده منه نور الدين فلم يبدي إستياءاً أو دهشة من طلبه واجابه بما أقنعه وجعله يعدل عن اخذه، فقال لنور الدين: أنت فيك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لان عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء اخيك مسلمون، فيحتاج من يقوم بدفعهم وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك(٣)

وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م تحسنت العلاقات بين الموصل وحلب وبلغ من الإتفاق الاخوين وثقتهما المتبادلة، أن أقدم نور الدين على إختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحس بضعفه ومرضه، وأسرع نور الدين فانفذ إلى أخيه قطب الدين وفدا لاحاطته بالموقف وإتفاق الأمراء على توليته العهد بعد نور الدين وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين ممدود على رأس جيشه من الموصل وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين، وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو وأرسل وزيره جمال الدين لمقابلة نور الدين والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير إلى دمشق ٥٥٤هـ/١١٥٩م وأجتمع بنور الدين وابلغه إستعداد أخيه لوضع إمكانياته في خدمته، فشكره نور الدين على ذلك وعبر له عن شكره لمشاعره أخيه قطب الدين وانفذ معه الأمير أسد الدين شيركوه لتقديم الشكر إلى صاحب الموصل (٤)

وحاول قطب الدين ورجال دولته أمثال الوزير جمال الدين وزين الدين أن يوسعوا دولتهم فحاولوا الميل مع الكفة الراجحة في الصراع الدائر بين السلطان السلجوقي محمد وأبناءه سليمان شاه وملكشاه والخليفة العباسي المقتفي، فلما طلب السلطان محمد المساعدة من الاتابك قطب الدين ونائبه زين الدين وساق لهم الهدايا فأجاباه وسار زين الدين بجيش كبير قاصداً معاونة السلطان محمد، ولما كان بشهر زور لعل أن السلطان محمد فرق جيش ولداه سليمان شاه وملكشاه قرب همدان، ثم وصلت أخبار لزين الدين أن سليمان شاه يريد بغداد ولما كان قرب شهر زور قبض عليه زين الدين حمله معززاً مكرماً وحبسه في الموصل(٥)

---

(١) ابن الأثير: الباهر، صـ ٩٧، ابن خلدون: تاريخه، ج٥ صـ ٢٤٠

(٢) سعيد الديوحي: تاريخ الموصل، ص ٢٨٩،٢٨٨

(٣) سعيد الديوجي: المرجع السابق، ص ٢٨٩

(٤) ابي شامة: الروضتين، ص٣٠٦،٣٠٥، رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل، ص٨٦-٨٧ ، سعيد الديوجي:- تاريخ الموصل، ص٢١٠

(٥) ابي شامة: الروضتين، ج١ ص٢٩١-٢٩٠

وفي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م سار السلطان محمد إلى بغداد وأرسل إلى قطب الدين يستنجده بالعساكر فأمده بجيش بقيادة زين الدين وحاصروا جانبي بغداد وكاتب الخليفة وولاة الأطراف يحثهم على قصد بلاد السلطان محمد، فتحرك أمراء الأطراف وذهب ملكشاه إلي الي همدان وأحتلها وذلك لنصرة الخليفة ولإبعاد السلطان محمد عن بغداد كما نجح الخليفة أيضاً في إستمالة زين الدين فعدل عن قتاله، فدفع ذلك السلطان محمد على أن يعود إلى همدان تاركاً بغداد(١) وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م توفي السلطان محمد فأتفق أكابر الدولة على تولية سليمان شاه مكانه، فأرسلوا إلى قطب الدين ممدود سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م يطلبون إليه أن يرسل سليمان شاه ليولوه السلطنة وأتفقوا على ان يكون سليمان شاه سلطان وقطب الدين اتابكه وجمال الدين الاصفهاني وزير قطب الدين وزيره وتحالفوا علي هذا، وجهز قطب الدين بالأموال والآلات ومعه عسكر الموصل بقيادة زين الدين إلى همدان (٢)

ولما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر عليهم بكثرة ولكن تبين لزين الدين أن سليمان لا يصلح للسلطنة حيث مال إلى السخرية وعكف على اللهو والخمر لايلتفت إلى نصح الأمراء بعيداً عن الحكمة والتدبير، سلم الأمر إلى كردبازو من خدم السلجوقية لما فيه من دين وحسن تدبير، فإتفق هذا مع الأمراء على خلعه وقبض عليه وقتل سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م(٣)

ولو تم الأمر لسليمان شاه لكانت الدولة السلجوقية بيد قطب الدين ورجاله ولكن سوء تصرف سليمان أفسد الأمر، وخاف زين الدين على نفسه وعلى الموصل من تسلط الجيش علي سليمان شاه فعاد إلى الموصل، وهكذا فشلت خطة قطب الدين ورجال دولته في زيادة رقعة بلادهم بعد إخفاقهم مع سلاطين السلاجقة(٤)

ويبدو أن أزدياد شهرة الوزير جمال الدين في إنفاق المال في الصداقات ووجوه البر المعروفة فضلاً عن كثرة تردد كبار رجال الدولة ورجال الدين وحسن تعامله معهم كانت وبالا عليه وادت في النهاية إلى القضاء عليه، ففي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أجتمع الأمير أسامة بن منقذ بجمال الدين في الموصل وهو متوجه إلى الحج فعرض عليه داراً في الموصل فرفض ونزل من خيمة علي الشاطئ، وكان كل يوم يركب الوزير جمال الدين ويمر على جسر نحو نينوي(٥) ثم يتجه للأمير أسامة ويأخذه في جولة ويسيران معا، وذكر الأمير أسامة انه أستغل فرصة إنفراده بالوزير جمال الدين ونصحه قائلا أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما نصحتك خفايا الود من أحد	مالم يصبك بمكروه من العزل
مودني لك تأبى أن تسامحني	بأن أراك على شئ من الذلل(٦)

ونصح الوزير جمال الدين بان يكف عن إنفاق المال في الصداقات وغيرها من وجوه الخير لأن السلاطين والملوك لا يحبون إخراج المال بهذا الشكل، ولو كان هذا المال يخرج من ميراث الإنسان ما رضوا بذلك أيضاَ، وهذا الأمر هو الذي

(١) ابي شامة: الروضتين ، ج١ ص٢٩١

(٢) سعيد الديوجي: تاريخ الموصل، ص ٢٩١

(٣) سعيد الديوجي: نفس المرجع والصفحة

(٤) سعيد الديوجي: نفس المرجع والصفحة

(٥) ابي شامة: الروضتين ، ج١ ص٤٣٤

(٦) ابي شامة: الروضتين ، ج١ ص٤٣٥-٤٣٤

أهلك البرامكة ونصحه بأن يجد مخرجاً من ذلك، فعبر له الوزير عن شكره نظير ما ابداه من قلق وخوف من هذا الأمر[١]

ذكر بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ[٢] بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي أنطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل وأقعد هناك، فأن اتاك شئ فاخفظه إلي إلى أن احضر عندك ففعلت، وإذا قد اقبل جمع كثير من الحمالين يحملون احمالاً من النصافي والخام، ثم جاء نائب الوزير جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كبير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثير من الجمال، فقال لي تاخذ هذه الاحمال وتسير إلى الرحبه[٣] فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا حضر لك فلاناً العربي فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلانا العربي فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة وعلى ساكنها السلام.[٤]

وذكر بعد ذلك أن يوصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه أسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ثم تأخذ الباقي الذي عليه أسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي به بموجب الجريدة الأخرى، قال فسرنا كذلك إلى وادي القرى[٥] فراينا به نحو مائة حمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري والصاع خمسة عشر ديناراً رطلاً بالبغدادي، فلما رءوا الطعام والمال أشتروا كل سبعة آصع بدينار فإنقلبت المدينة بالدعاء للوزير جمال الدين، ثم صرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.[٦]

ويذكر أيضاً أن جمال الدين حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئاً، وتردد إليه عدة أيام ثم توقف فسال عنه فقيل له أنه سافر فغضب لما علم بذلك، ثم قال هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب وردد ذلك غير مرة، ثم سال عنه مرة اخرى فقيل له أنه سار نحو ماردين[٧]

فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين[٨].

وكانت احب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات فكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق، وذكر انه في احد الأيام أحضر بين يديه قندزاً[٩] ليعمل على وبر ليلبسه في خمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير أشتروا لي قنذراً بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير، فحاول البعض مراجعته أكثر من مرة فرفض ذلك[١٠]

(١) ابي شامة: الروضتين ، ج١ ص٤٤٣

(٢) شيخ الشيوخ: لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية، حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٣٦٦-٣٦٧

(٣) الرحبة: قرية بحزاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة، ياقوت: معجم البلدان، ج٣ ص ٣٣

(٤) ابي شامة: الروضتين ، ج١ ص٤٣٢،٤٣٣

(٥) وادي القرى .. هو وادي بين المدينة والشامي من أعمال المدينة، ياقوت: معجم البلدان، الجزء الخامس صـ ٣٤٥

(٦) ابي شامة: الروضتين ، ج١ صـ٤٣٣

(٧) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دينيسر ودار ونصيبين وذلك الفضاء الواسع، ياقوت: معجم البلدان، الجزء ٥،٥، ص ٣٩

(٨) ابن الأثير: الباهر، صـ ١٣٠

(٩) قندز: هو القندس ثعلب الماء تتخذ من جلده فراء فاخراً يلبسها السلاطين، الألفاظ الفارسية المعربة، ص ١٢٩-١٣٠

(١٠)ابن الأثير: الباهر، ص ١٢٩

وحدث بالموصل وان تعذرت بها الأقوات وغلت الأسعار في بعض السنوات وكان بها رجل صالح يقال له الشيخ عمر الملأ فأحضره جمال الدين وأعطاه مالاً وطلب منه أن يخرجه إلى مستحقيه وكلما فرغ إرسل إلي لأعطيك غيره، فلم تمضي إلا ايام قليلة حتى فرغ المال من كثرة المحتاجين ثم أرسل إليه مالاً أخر ففني ثم أرسل إليه يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين: والله ما عندي شئ ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء أخر فنرسله إلى الشيخ عمر فبيعت وتصدقوا بثمنها واخبروه بذلك، فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاهم ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي على رأسه وأرسل الجميع وقال: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه ايام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بثمنها[١]

وصارت الموصل في أيام جمال الدين مقصدا وملجاً لكل الناس ويكفيه أن صدر الدين الخجندي رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان وأخوه جمال الدين قصداه فاعطاهما من أنعامه وإكرامه المنهل، وأقام صدر الدين مدة بالموصل محاط بكل انواع الرعاية والجود والكرم ثم انصرف عنها مملوء بالحقائب، فأنشد في جمال الدين الوزير ابياتا من جملتها:

جئت إلى بابك فردا وقد رجعت من نعماك في قافلة

كما جاء إليه أيضاً ابن الكافي قاضي قضاة همزان فأخرج إليه مالاً جزيلاً، وكذلك غيره من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية وذكر متولي ديوان صدقات الوزير جمال الدين أنه كان يخرج[٢]، على باب داره كل يوم للصعاليق والفقراء مائة دنيار اميري سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت، وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خرسان إلى حدود اليمن، وكان يشتري كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام بخلاف ما يشتريه من الكرج[٣] بالإضافة إلى صدقاته الوافدة إلى الفقهاء ببغداد وغيرها من البلاد[٤].

أهم اعماله في مجال البناء والعمارة :-

قام الوزير جمال الدين بتجديد بناء مسجد الخيف بمنى ودرجه واعمله بالرخام وانفق في سبيل ذلك أموالا عظيمه، وبنى الحجر بجانب الكعبة وكان أسمه عليه ثم تغير ذلك وبنى غيره سنة ٥٧٦ هجرياً وزخرف الكعبة بالذهب والفضة وعملها بالرخام واستمرت هذه الأعمال المنسوبة إليه بها حتى سنة ٦٠٩ هجرياً، ولما أراد ذلك أرسل إلى الخليفة العباسي

المقتفي لأمر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك، كما ارسل إلى الأمير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعاً سنيه منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار حتى مكنه من ذلك [٥].

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء واجرى الماء إليها من نعمان[٦] في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس وأنفق

---

(١) ابن الأثير: الباهر، ص ١٣٠,١٢٩

(٢) ابن الأثير: الباهر، صـ ١٢٩، أبي شامة: الروضتين،ج١ ص٤٣٠،٤٣١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠ ص٣٨٦

(٣) الكرج: هي مدينة بين همزان واصفهان في نصف الطريق، ياقوت: معجم البلدان، الجزء ٤، ص ٤٦٦

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١ ص ٢٤٩

(٥) ابن الأثير: الباهر، صـ ١٢٨، الكامل، ج٩،ص٨٨، الفاسي: العقد الثمين،ج٥ ص٤٤٠

(٦) نعمان: وادي بين مكة والطائف على ليلتين من عرفات، ياقوت: معجم البلدان، الجزء ٥، ص ٢٩٣

فيها أموالاً كثيرة، وكان يقدم لأهل نعمان كل سنه مالاً كثيراً ليتركوا المال يسير إلى المصنع أيام مقام الحجاج بعرفات فكان الناس يجدون به راحة عظيمه.(١)

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه الصلاة والسلام فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان اهلها في ضنك وضراً معه، وسمع ابن الأثير إنساناً بعد صلاة الجمعة في المدينة يترحم على جمال الدين ويدعوا له جزء ما فعله من جراء بناءه لهذا السور، كما كان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور، محمد بن علي بن منصور (يقصد الوزير جمال الدين)(٢)

ومن أبنيته العجيبة التي لم يرى الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجله عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس إلا انه لم يكتمل بناءه لأنه قبض قبل فراغه، وبنى ايضاً جسراً على نهر الابار عند الجزيرة أيضاً، وبنى أيضاً الربط الكثيرة بالموصل وسنجار(٣)ونصيبين(٤)وغيرها(٥).

وأخيراً سعى به الحساد أصحاب زين الدين إلى الاتابك قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: أنه يأخذ أموالك فيتصدقك بها ولكنه لم يتغير بسبب إتفاقه مع زين الدين، لكنه نجح في تغيير زين الدين من حمايته ومؤازرته ثم قام قطب الدين في النهاية بالقبض عليه وحبسه بقلعه الموصل، ثم ندم زين الدين على الموافقة على ذلك، وعلم ان خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون من جمال الدين فلما قبض عليه سيطروا على أمور البلاد سواء بالأمر أو النهي على خلاف ماكان يريد زين الدين، أما جمال الدين فبقى في الحبس سنة ثم مرض، وذكر ابن الساعي في تاريخه عن رجل من الصالحين يسمى الشيخ أبا القاسم الصوفي كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه انه لم يزل مشغولاً بأمر أخرته مدة حبسه حتى نزل إليه طائر أبيض قبل موته فلم يزل عنده وهو يذكر الله حتى توفى في شعبان سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م(٦).

ولما مات دفن في رباط بناه لنفسه في الموصل وكان قد أوصى الشيخ أبا القاسم أن بينه وبين أسد الدين شيركوه عهداً أيهما مات قبل الأخر ان يحمله الحي إلي المدينة على ساكنها السلام فيدفنه في التربة التي عملها فإذا أنا مت فأمضي – إليه وذكره، فلما توفى سار أبا القاسم إلى شيركوه فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد أجرة جمل يحمله وجمل يحملني وزادي،

---

(١) ابن الأثير: الباهر، ص ٢٨، أبي شامة: الروضتين، ج١،ص٤٢٩

(٢) ابن الأثير: نفس المصدر والصفحة، أبي شامة: الروضتين،ج١، ص ٤٢٩- ٤٣٠

(٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، ياقوت: معجم البلدان، الجزء ٣، ص ٣٦٢

(٤) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة، ياقوت: معجم البلدان، الجزء ٥، ص ٢٨٨

(٥) ابن الأثير: الباهر، ص ١٢٩

(٦) ابن الأثير: الباهر، ص١٢٧، الكامل، ج٩، ص٨٨، أبي شامة: الروضتين، ج١،ص٤٢٦،٤٢٧

فنهره وقال له مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة وأعطاه مالاً صالحاً ليحمل معه جماعه يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرءون عليه بين يدى تابوته إذا حمل وإذا نزل عن الجمل وإذا وصل إلى المدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه في كل بلدة يجتاز بها، وأعطاه أيضاً مالاً للصدقة عنه، فصلى عليه في تكريت وبغداد والحلة والكوفة وفيدوا و مكة وطيف به حو الكعبة ثم حمل إلى المدينة فدفن بها في رباط بناه شرقي مسجد النبي بينه وبين قبر النبي خمسة عشر– ذراعاً[(١)]

قال ابن الساعي: لما صلى عليه بالحلة صعد شاباً على موضع مرتفع وأنشد باعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثنى رماله عليه وبالنادي فتثنى أرامله[(٢)]

أنشد علم الدين الشاتاني بدمشق سنه أحدى وسبعين وخمسمائة من قصيدة له في جمال الدين وزير الموصل محمد ابن علي أبي منصور لما نكب:

ما حط قدرك من أوج العلا القدر كلا ولا غيرت أفعالك الغير

أنت الذي عم أهل الأرض نائلة ولم ينل شأوه في سؤدد بشر

سارت صفاتك في الآفاق وأتضحت وصدق السمع عنها ما رأى البصر

فاصبر لصرف زماناً قد منيت به فاخر الصبر دهراً له في أهله غيره

سعوا بقصدك سراً فاستتب لهم ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا[(٣)]

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح رزيك:

لاخير في الدنيا ولا أهلها بعد جمال الدين والصالح

بحران لولا دمع باكيهما ما كان ماء البحر بالمالح[(٤)]

كان جمال الدين الأصفهاني أحد أركان دولة عماد الدين قد وثق بإخلاصه وتدبيره ومنحه ثقته الكاملة وجعله مشرف مملكته كلها فتحكم في كافة الأمور فكان اهلاً لهذه الأمانة، وهذا ما دفعه بعد ذلك إلى حفظ الدولة بعد مقتل عماد الدين وتدبير أمورها فكان وزير سيف الدين وسار على نفس المنوال كما كان والده أميناً وحافظاً للعهد، ثم وزر لقطب الدين الابن الثاني لعماد الدين فلم تظهر له شائبه او كارثة ولكن نجح حساده في التخلص منه بطريقة سيئة خالت على قطب الدين فقبض عليه وحبسه ونسى ما قدمه جمال الدين له ولوالده وأخوه من إخلاص تام وعمل دءوب طوال حياته سواء على المستوى الخارجي فتمكن من حفظ دولتي اتابكية الموصل وحلب من الخطر الصليبي ومن الصراع سلاطين السلاجقة أو الخلافة العباسية، وعلي المستوي الداخلي تمكن من حفظ الدولة من السقوط ومنع الصراع بين أبناء عماد الدين بعد وفاته وحجم من طمع كبار رجال الدولة في حكم البلاد، ثم كان هذا جزاءه بما لايستحق في نهاية المطاف.

---

(١) ابن الأثير: الباهر، ص ١٢٧، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص٢٤٩

(٢) ابن الساعي: تاريخ ابن الساعي، ج٩، ص٣٠٤،٣٠٥، أبي الفدا: تاريخ أبو الفدا، ج٣، ص٤٢

(٣) العماد الكاتب: خريده القصر وجريدة العصر، ج٢، ص٣٧٢

(٤) ابي شامة: الروضتين، ج١ ص٤٣٦

المصادر و المراجع

(أ) المصادر

١. ابن الساعي: تاريخ ابن الساعي، وبذيله من الضائع من تاريخ ابن الساعي، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م دار الفاروق، عمان.

٢. ابن الأثير: علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر احمد، دار الكتب الحديثة – بدون.

٣. : الكامل في التاريخ، طبعة الإستقامة – القاهرة بدون

٤. ابي الفداء: (٧٠١–٧٧٤هـ) عماد الدين إسماعيل،تاريخ أبي الفداء، دار المعرفة، بيروت، بدون الجزء الثالث.

٥. أبو الفداء: (٧٠١–٧٧٤هـ) عماد الدين ابي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية، الدمشقي ، الطبعة الأولى ١٩٦٦، مكتبة المعارف – بيروت – الجزء الحادي عشر .

٦. ابن خلدون: (ت٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة ١٣٩١هـ– ١٩٧١م، مؤسسة الأعلمي– بيروت، الجزء الخامس

٧. العماد . العماد الأصفهاني الكاتب، خريده القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام، تحقيق د/شكري فيصل، ١٣٧٨م / ١٩٥٩م دمشق، الجزء الثاني.

٨. ابن خلكان: (٦٠٨ – ٦٨١هـ) ابن العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن ابي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وإنباء ابناء الزمان حققه د/ احسان عباس، دار الثقافة – بيروت – بدون).

٩. الذهبي: (٧٤٨ هـ – ١٣٧٤م) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان سير اعلام النبلاء، حققه شعيب الأونؤوط – محمد نعيم الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، مؤسسة الرسالة – بيروت، الجزء العشرون.

١٠. ابن واصل: محمد ابن سالم ابن واصل جمال الدين، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣، القاهرة.

١١. ابي شامة: (٥٩٩ – ٦٦٥هـ) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ابن ابراهيم المقدسي الدمشقي، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه وعلق عليه إبراهيم الزيبق الطبعة الأولى ١٤١٨م – ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة – بيروت – الجزء الأول

١٢. ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

١٣. الفاسي: (ت ٨٣٢هـ) تقي الدين محمد بن احمد الحسني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م – بيروت — جزء ٥

١٤. ياقوت: شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان – بدون جزء ١، ٢، ٣، ٤، ٥

ب– المراجع:

١. العريني: السيد الباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٣، الجزء الأول.

٢. رشيد الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٢١هـ – ٦٣١هـ) الطبعة الأولى، ١٩٧٠ – بيروت.

٣. سعيد الديوجي: تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢، العراق
٤. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، الجزء الثاني
٥. حسن الباشا: الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة - القاهرة ١٩٧٨
٦. علي محمد محمد الصلابي: عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، الطبعة الأولى ١٤٢٨م — ٢٠٠٧م دار ابن كثير، دمشق.